المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

عشر سنوات على احتلال العراق

١٠ – ١١ نيسان / أبريل ٢٠١٣

تشريح الموقف الروسيّ من غزو العراق ٢٠٠٣

سلام مسافر

هذه نسخة أولية للورقة لأغراض العرض في المؤتمر، ولا يجوز استخدامها أو الاقتباس منها لحين نشرها في صيغتها النهائية

تشريح الموقف الروسيّ من غزو العراق ٢٠٠٣

جميع الحقوق محفوظة للمركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات © ٢٠١٣

المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السّياسات مؤسّسة بحثيّة عربيّة للعلوم الاجتماعيّة والعلوم الاجتماعيّة التطبيقيّة والتّاريخ الإقليميّ والقضايا الجيوستراتيجية. وإضافة إلى كونه مركز أبحاثٍ فهو يولي اهتمامًا لدراسة السّياسات ونقدها وتقديم البدائل، سواء كانت سياسات عربيّة أو سياسات دوليّة تجاه المنطقة العربيّة، وسواء كانت سياسات حكوميّة، أو سياسات مؤسّسات وأحزاب وهيئات.

يعالج المركز قضايا المجتمعات والدول العربيّة بأدوات العلوم الاجتماعيّة والاقتصاديّة والتاريخيّة، وبمقاربات ومنهجيّات تكامليّة عابرة للتّخصصات. وينطلق من افتراض وجود أمن قوميّ وإنسانيّ عربيّ، ومن وجود سماتٍ ومصالح مشتركة، وإمكانيّة تطوير اقتصاد عربيّ، ويعمل على صوغ هذه الخطط وتحقيقها، كما يطرحها كبرامجَ وخططٍ من خلال عمله البحثيّ ومجمل إنتاجه.

المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السّياسات
شارع رقم: ٨٢٦ – منطقة ٦٦ – الدفنة
ص. ب: ١٠٢٧٧ – الدّوحة، قطر
هاتف: ٤٤١٩٩٧٧٧ ‎+٩٧٤ | فاكس: ٤٤٨٣١٦٥١ ‎+٩٧٤
www.dohainstitute.org

المحتويات

توطئة ٢

خبراء بلا حدود ٢

" لوك أويل " " غازبروم " أوراق الكرملين الرابحة.. ٣

من أفغانستان إلى الشيشان ٥

زيارة الأسابيع الأخيرة ٧

غضب صدّام حسين.. ٨

أنبوبة الجنرال كولن باول.. ١١

مسودة

توطئة

اتّخذت موسكو موقفًا كان يبدو صعبًا من الحرب الأميركية على العراق. إذ سعى الكرملين للحفاظ على موقفٍ مستقلٍّ وُصف في حينها بأَنَّه غير مريحٍ للاعبين الرئيسيّين؛ لكنّه وبعد سنواتٍ من احتلال العراق، بدا منسجمًا مع النهج البراغماتي لرجل روسيا القويّ فلاديمير بوتين. ويمكن القول إنّ نهجين متباينين شغلا الدوائر الروسية: تيّارٌ يدعو إلى الانخراط في تحالف الحرب ضدّ نظام الرئيس الراحل صدّام حسين بقيادة الولايات المتّحدة من منطلق حسابات الربح والخسارة، وبذريعة الحفاظ على المصالح الروسية الاقتصادية في عراقِ ما بعد صدّام حسين. وتيّارٌ يدعو إلى النأي بالنفس والاكتفاء بعدم عرقلة الخطط الأميركية مع الاحتفاظ بالقدرة على المناورة في الوقت المناسب.

خبراء بلا حدود

في الشهور الأخيرة من عام ٢٠٠٢ وفي مطلع عام ٢٠٠٣، كثَّف الخبراء الروس اجتماعاتهم بضوءٍ أخضرَ من الكرملين لدراسة الوضع المحيط بالعراق، وسط قناعةٍ مطلقةٍ لدى الجميع أنّ الحرب ستقع لامحالة. ودفع غالبية الخبراء الذين يُحسبون على التيّار الليبراليّ باتّجاه الترويج لفكرة أنّ روسيا ستخسر كلّ مواقعها في البلد الغنيّ؛ إذا وقفت ضدّ الحرب وعرقلت الجهد الأميركي لتشكيل تحالفٍ دوليٍّ ضاربٍ. وكان صوت الفريق الآخر من المحسوبين على ما يعرف بالتيّار " الوطنيّ القوميّ" الروسيّ ضعيفًا للغاية؛ وانحصر في مقالاتٍ ودراساتٍ تشدّد على مقولاتٍ جيوسياسيةٍ من قَبيل أنّ احتلال العراق سيكون بداية العدِّ التنازليّ للهيمنة الأميركية على مقدّرات الشرق الأوسط وطريقًا سالكًا نحو محاصرة روسيا وزعزعة الاستقرار في خاصرتها الرخوة؛ شمال القوقاز. ورأى هؤلاء في إسقاط نظام الرئيس العراقيّ صدّام حسين، تحوّلًا نوعيًّا في المنطقة سيؤدّي إلى تفاعلٍ متسلسلٍ يصيب إيران وسورية ويُفقد روسيا كلّ مواقعها في المنطقة.

ويدرك الخبراء أنَّ التوصيات التي ستُرفع لن تكون ذات أهمية إلّا إذا جرى التأثير على الرأي العامّ الروسيّ، وتصوير الحرب على العراق بأنّها ضروريةٌ لبناء " نظامٍ دوليّ جديدٍ" ستحتلّ فيه

روسيا موقع الشريك مع الولايات المتّحدة وليس الخصم. الأمر الذي يفسِّر الكمَّ الهائل من المقالات والتقارير المنشورة في تلك المرحلة على الصفحات الأولى للصحف الليبرالية التي تموّلها المراكز المالية ذات النفوذ القويّ في الحياة السياسية الروسية آنذاك. وركّزت المقالات على أنّ عقودًا مجزيةً مع العراق ستذهب أدراج الرياح إذا تمسّك بوتين بسياسة "وضع العصي" في عجلة الحرب التي تعدّ لها واشنطن وحليفاتها.

لكنّ الكرملين اختار موقفًا، تصفه الدوائر القومية الروسية بأنّه " انتهازيٌّ" فمن جانبٍ لم تصدر عن المؤسّسة الحاكمة أيّة تصريحاتٍ أو خطواتٍ عشيّة الغزو، توحي بأنّ روسيا تؤيّد الحلّ العسكريّ في تسويّة مشكلة "أسلحة الدمار الشامل" المزعومة لدى العراق. وفي الوقت نفسه كانت تطلق بين الحين والآخر تصريحاتٍ مندّدةً كي يضمن الكرملين احتفاظ روسيا بسمعةٍ طيّبةٍ لدى الشعوب العربية والإسلامية المناهضة للحرب على البلد الشقيق العراق. ولم يستمع الكرملين إلى "توصيات" و"نصائح" الخبراء الليبراليّين الداعيّة إلى الدخول في خيمة الحرب الانكلوسكسونية على شعب العراق.

" لوك أويل " " غازبروم " أوراق الكرملين الرابحة

في تلك الفترة مارس بوتين نشاطًا دبلوماسيًا هادئًا، من جهةٍ، لا يثير الولايات المتّحدة ويوحي بالوقوف ضدّ خططها الرامية إلى القضاء على النظام في العراق، ومن جهة أخرى، إعطاء انطباعٍ بأنّ روسيا حليفٌ تاريخيٌ للعرب ولن تقبل بتعرّض أيّ بلدٍ من البلدان العربية إلى عدوانٍ خارجيٍّ.

واستفاد الكرملين من الخلاف بين ترويكا: فرنسا وألمانيا وبلجيكا، التي عارضت العمل العسكريّ ضدّ العراق، وبين الولايات المتّحدة وحليفتها العجوز بريطانيا الأكثر تحمسًا للحرب، وفي فترةٍ وصلت الاستعدادات اللوجستية مرحلة اللاعودة.

وكان التوصيف الأقرب إلى عقل الكرملين للوضع في المنطقة عشية الغزو، أنّ حربًا إقليميةً بنطاقٍ عالميٍّ ستنشب في الشرق الأوسط، إذا وقفت روسيا بشدّةٍ ضدّ الحرب. وأنّ الخيار الأمثل

مسودة

يكمن في الاحتفاظ بهامشٍ للمناورة يمكن أنْ يعيد إلى موسكو عقودها المجزية في العراق بعد سقوط النظام. خاصّةً وأن الرئيس صدّام حسين ألغى عقدًا لشركة " لوك اويل" الروسية كان يمنحها امتيازاتٍ غير مسبوقةٍ في استخراج نفط (حقل غرب القرنة – ٢). وقالت بغداد حينها إنّ الشركة الروسية لم تنفّذ التزاماتها المنصوص عليها في الاتّفاق، ولم تباشر العمل في الحقل. وحينها تسرّبت تقارير تفيد بأنّ ممثّلين عن الشركة التقوا بعددٍ من ممثّلي ما كان يعرف " بالمعارضة العراقية " في الخارج بينهم أحمد الجلبي وبرعايةٍ أميركيةٍ.

حينها، أشير إلى أنّ شركة " لوك أويل " حصلت على تعهداتٍ أميركية بأنّ عملاق الطاقة الروسيّ، ستفوز بعقدٍ مجزٍ في العراق بعد القضاء على نظام الرئيس صدّام حسين. ويبدو أنّ ما كان يدخل حينها في عداد الشائعات، تأكّد في الواقع العمليّ حين استعادت " لوك أويل" (حقل غرب القرنة – ٢) وبعد سلسلة مواقفَ تدلّل إنْ كانت الشركة استعادت العقد بضوءٍ أخضرَ أميركيٍّ، وضغطٍ إيرانيٍّ وهذا ما سنأتي عليه بالتفصيل لاحقًا.

وإذ بات معروفًا أنّ النفط كان المحرّك الرئيس لحرب بوش الابن على العراق، فإنّ المعركة على أسواق الطاقة كانت وراء تلوّن المواقف الروسية من النظام في العراق. ومن واقع إدراك الدوائر الروسية صاحبة القرار بأن مستقبل العلاقات الدولية يعتمد بصورةٍ أساسيةٍ على المهارة في استخدام "القوّة الناعمة " المصطلح الأثير لدى القيادة الروسية التي تستخدم ورقة الطاقة ببراغماتيةٍ عاليةٍ في علاقات موسكو مع القارّة الأوربية، ومع الجمهوريات السوفياتية السابقة، ومع الدول التي تعتمد بصورةٍ كليةٍ أو جزئيةٍ على صادرات الطاقة الروسية. بل يذهب فريقٌ من الباحثين الإستراتيجيّين إلى القول بأنّ موقف موسكو المتشدّد في الملفّ السوريّ يفسّر على أنّ روسيا لا تريد السماح لمنافسين في إقليم الشرق الأوسط بالتأثير على احتكار صادراتها من الغاز إلى أوربا. ويتعيّن الحفاظ على أهمّ المعابر إنْ لم يكن أهمّها على الإطلاق وهو سورية. وحسب أسبوعية "فلاست " حسنة الاطلاع فإنّ مصير عملاق الغاز الروسيّ "غازبروم" وعائدات الميزانية الروسية، يحسم الآن في معارك الشوارع الدائرة في دمشق وحلب. وتقول المجلّة في مقالها المعنون " الغاز هو السبب؟ " إنّ " الحرب الأهلية المستمرّة في سورية منذ عامين يُنظر إليها في أغلب الأحيان من زاوية حقوق الإنسان، بينما النزاع المسلّح في البلاد يمثّل إلى حدٍّ بعيدٍ صدى

مسودة

صراعٍ عميقٍ بدأه اللاعبون الكبار في سوق الغاز العالميّ، وستكون الجائزة الكبرى منفذًا إلى سوق الغاز الأوروبيّ.

وفيما تستبعد " فلاست" انجرار الولايات المتّحدة إلى عملٍ عسكريٍّ في سورية فإنّها ترى أنّ وضع "لا غالبَ ولا مغلوبَ" مناسبٌ لروسيا وتقول" يبقى الوضع الحاليّ للأزمة السورية في صالح روسيا. فما دامت المعارضة غير قادرةٍ على الإطاحة ببشّار الأسد، لن يكون هناك أيّ أنبوبٍ لنقل الغاز القطريّ إلى أوروبّا. وموسكو ليست معنيةً كذلك بانتصارٍ ساحقٍ لنظام الأسد على خصومه. ففي ظروف الحرب الأهلية المستمرّة، لا يمكن أنْ يدور الحديث عن بناء خطّ الأنابيب الإيراني إلى سورية. ولعلّ ذلك يفسّر موقف موسكو في مجلس الأمن ودفاعها عن النظام السوريّ لمنع الغرب من بدء حملةٍ عسكريةٍ على دمشق، وحتّى إعلان منطقة حظرٍ جوّيٍّ كما جرى في ليبيا."

وتقول " فيما تنشغل قَطر ومعها الاتّحاد الأوروبيّ بالموقف من سورية، تتابع شركة "غازبروم" الروسية تطوير مشاريعها العملاقة: السيل الشمالي (يجري بحث بناء المرحلة الثالثة والرابعة)، والسيل الجنوبي (لم تبدأ بعد مرحلة مدّ الأنابيب تحت قاع البحر). وإذا تمكّنت روسيا من بناء خطوطها قبل انتهاء الحرب في سورية، فمن الممكن أنّها تحافظ على مواقعها في سوق الغاز الأوروبيّ، وهو ما سيأتي بفوائدَ لا تقدّر بثمنٍ للخزينة الروسية".

من أفغانستان إلى الشيشان

في السياق نفسه، يرى الخبراء أنّ موسكو تدعم الحملة العسكرية الأميركية في أفغانستان وتقدّم لواشنطن خدماتٍ لوجستيةً عبر القواعد الروسية القريبة من أفغانستان لأنها تحصل مقابل ذلك على فوائدَ بعيدة المدى. فقد حجّم الغزو الأميركيّ لأفغانستان قوّة طالبان التي تمثّل تهديدًا حقيقيًا لجارات روسيا من الشقيقات السوفيتيات السابقات، وغالبية سكّانها مسلمون تنتشر بينهم حركاتٌ أصوليةٌ تجد لها امتدادًا أيديولوجيًا في حركة طالبان والحركات السلفية في العالم العربيّ، وفي باكستان. كما أنّ منطقة شمال القوقاز بشعوبها المسلمة يعتقد أنّها منطقةٌ معرّضةٌ لخطر الحركات الانفصالية بفرقها ومدارسها السنّية المختلفة. وقد ضمنت موسكو موقفًا أميركيًا محايدًا

مسودة

إن لم يكن مساندًا في حربها على الانفصاليّين الشيشان بفضل وقوف الكرملين إلى جانب البيت الأبيض في الحملة العسكرية على أفغانستان.

في تلك الفترة كان الاتّحاد الأوربيّ يوجّه انتقاداتٍ حادةً لروسيا على ما يعتقده انتهاكًا لحقوق الإنسان في جمهورية الشيشان. وأصدر المجلس الأوربيّ قراراتٍ متلاحقةً ضدّ الانتهاكات، وصلت إلى حدّ المطالبة بمنع الوفود الروسية من المشاركة في اجتماعات الجمعية العامّة للمجلس الأوربي أو عدم منح المسؤولين الروس تأشيرات دخولٍ إلى بلدان الاتّحاد الأوروبي. بيد أنّ الموقف الأميركيّ حسم الجدل في الدوائر الأوربية بشأن الحرب الشيشانية لصالح موسكو. ولم تتعرّض روسيا إلى العقوبات التي لوّح بها بعض الأوربّيين.

وقد خدمت مأساة مسرح " نورث اوست" القيادة الروسية. إذ حصل تحوّلٌ شبه نوعيٍّ في مواقف الأوربّيين من الحرب في الشيشان. حين اقتحمت مجموعةٌ شيشانيةٌ في الثاني والعشرين من تشرين الأول / أكتوبر عام ٢٠٠٢ مبنى المسرح في قلب موسكو واحتجزت أكثرَ من سبعمائة رهينةٍ بينهم مئات الأطفال. وقضى قرابة نصف الرهائن أثناء اقتحام القوّات الخاصّة قاعة المسرح وقيامها برشّ غازٍ مخدّرٍ أودى بحياة من لم تتحمّل رئته جرعاته الزائدة عن الحدّ المسموح. ومع أنّ أوساط الرأي العامّ حمّلت السلطات المسؤولية خطأ معالجتها لأزمة الرهائن، إلّا أنّ تجريم الخاطفين على فعلتهم غطّى على نقد السلطات. وفي تلك الفترة تواترت التصريحات الأميركية جهارًا أو تنويهًا بأنّ واشنطن لنْ تدعم الزعيم الشيشانيّ أصلان مسخادوف في تحقيق حلم الانفصال عن روسيا وإقامة جمهورية اتشكيريا القوقازية المستقلّة. كما ضغطت الولايات المتّحدة على جورجيا كيْ تطرد المسلّحين الشيشان المحتمين بجبال وادي " بنكيسي" إلى الشمال من العاصمة الجورجية تبليسي. واشترطت واشنطن لذلك موقفًا غير معارضٍ للحملة العسكرية الأميركية المزمعة على العراق. ولم تصدر عن موسكو حينها مواقفُ معلنةٌ مؤيدةٌ لكنّ بعض الدوائر الأوربية عبّرت عن انزعاجها ممّا اعتقدته تأييدًا روسيًّا خفيًّا لواشنطن.

وتردّدت تقاريرُ عن أنّ " اللوبي " المؤيّد للغرب في الإدارة الروسية؛ نجح في فرض رؤيته على مركز صنع القرار في الكرملين، والمقصود هنا فلاديمير بوتين، بمساندة الولايات المتّحدة في حربها المزمعة وعدم الوقوف بوجه الثور الأميركي. ويذكر أن المجموعة تتألّف من رئيس الوزراء

ميخائيل كوسيانوف، ومدير ديوان رئاسة الجمهورية الكسندر فالوشين، ومستشار الرئاسة لشؤون السياسة الخارجية سيرغي بريخودكو. وهم جميعهم الآن خارج السلطة.

زيارة الأسابيع الأخيرة

قام الكسندر فالوشين في السادس والعشرين من شباط / فبراير عام ٢٠٠٣ أيْ قبل ثلاثة أسابيع من غزو العراق، بزيارةٍ إلى واشنطن التقى خلالها مستشارة الأمن القومي كونداليزا رايس، وحضر اللقاء ريتشارد بيرل الذي كان يشغل آنذاك منصب النائب الأول لوزير الدفاع

وكشف بيرل لصحيفة " كوميرسانت " الروسية عن بعض تفاصيل اللقاء منوّهًا بأنّ الحرب على العراق " لنْ تفجّر مشكلةً بين موسكو وواشنطن". ولكنْ في اليوم التالي صرّح وزير الخارجية الروسية آنذاك إيغور إيفانوف بأنّ بلاده قد تضطر إلى استخدام الفيتو في مجلس الأمن الدوليّ " إذا لجأت الولايات المتّحدة إلى المجلس لإصدار قرار يجيز ضرب العراق". وقد أثار التصريح حفيظة بيرل الذي كان تحدّث قبل يومٍ واحدٍ عن " تفاهمٍ روسيّ أميركيّ" مع مدير ديوان الكرملين.

تجدر الإشارة إلى أنّ بيرل أحد أبرز قادة "المحافظين الجدد"؛ يُعدّ من ألدّ أعداء الاتّحاد السوفياتيّ؛ وهو مؤلّف رواية (Hard Line)، المستوحاة وقائعها من المباحثات السرّية بين آخر رئيسٍ سوفياتيٍّ، ميخائيل غورباتشوف والرئيس الأميركي رونالد ريغن في ريكيافيك يومي ١١ و١٢ تشرين الأول / أكتوبر من عام ١٩٨٧، والتي وضعت نهايةً للحرب الباردة بين موسكو وواشنطن دون أنْ تقدّم الولايات المتّحدة أيّ تنازلات بشأن ترسانتها النووية في وسط وشرق أوروبا. وتعتمد الرواية الصادرة عام ١٩٩٢، وصدرت طبعتها الروسية بعد ذلك بعشر سنواتٍ على فكرة الصراع بين الحمائم والصقور في الإدارة الأميركية أو بين المتزمّتين أصحاب (هارد لاين) والليبراليّين. وتكشف الرواية التي تعتمد دون شكٍّ على محاضر الاجتماعات بين ريغن وغورباتشوف مع تغيير الأسماء والأمكنة عن حجم التنازلات التي قدّمها الرئيس السوفياتيّ لنظيره الأميركي دون مقابل يُذكر.

مسودة

ويُعرف عن بيرل أنّه يحتفظ بعلاقاتٍ قويةٍ مع الليبراليّين في موسكو ويلتقي بهم دوريًا. ومن خلال المجموعة الليبرالية، استطاع بيرل أنْ ينسج شبكة علاقاتٍ لا بدّ أنّها تملك تأثيرًا على أصحاب القرار.

ولعلّ دروس ريكيافيك ودهاليزها، دفعت بالعقيد السابق في الاستخبارات السوفياتية (كي جي بي) فلاديمير بوتين إلى نهجٍ أكثرَ صلابةً من سابقيه في الكرملين فاختط سياسة لا تنازلات دون ثمن. وغالبًا ما صرّح بوتين بأنّ الأميركان "لا يريدون شركاء بل توابع VASSALS".

وهكذا لم يذهب الكرملين بعيدًا في معارضة واشنطن بشأن الملفّ العراقيّ الذي حسمته الولايات المتّحدة، دون قرار من مجلس الأمن الدوليّ، وعلى خلفية صمت ما يسمّى "المجتمع الدوليّ" لتحتلّ القوات الأميركية وحليفاتها بلاد الرافدين وتحرق الزرع وتبيد الضرع.

غضب صدّام حسين

ساهم قيام الرئيس العراقي صدّام حسين بإلغاء عقد "لوك أويل" مطلع فبراير/ شباط من العام ٢٠٠٣ أيْ قبل أقلّ من شهرين على غزو العراق، في تعزيز موقف التيار الداعي لأنْ تنخرط روسيا في التحالف ضدّ العراق. والذي كانت غالبية وسائل الإعلام الروسية تروّج لطروحاته. وهنا ينبغي الإشارة إلى أنّ استطلاعات الرأي العامّ في تلك الفترة كشفت عن أنّ زهاء نصف الروس لا يرون في صدّام حسين خطرًا على السلام العالميّ. بينما قال زهاء ٧٥% من المستطلعة آراؤهم إنّ الولايات المتّحدة تمثّل تهديدًا للأمن الدوليّ ويعقدونها دولةً عدوانيةً. وقد أدرك الكرملين أن أية تصريحاتٍ توحي بأنّ الكرملين يساند بوش في نياته العدوانية ضدّ العراق، ستظهر بوتن بصورةِ الرئيس الضعيف أمام الرأي العامّ الروسيّ المعادي بصورةٍ عامّةٍ للسياسة الأميركية. ولذلك لم تصدر عن بوتين أيّ تصريحاتٍ يشمّ منها تأييد للحرب القادمة. ولم يؤثّر ذلك في صورة "التحالف" الروسي الأميركيّ ضدّ " الإرهاب". وعكف لفيفٌ من الباحثين في مدرسة الاقتصاد العليا التي تعدّ وكرًا لليبراليّين الموالين للغرب في المؤسّسة الأكاديمية الروسية لدراسة تأثيرات الموقف من الحرب القادمة ضدّ العراق على شعبية بوتين. ويبدو أنّ الباحثين صاغوا جملة خطواتٍ تصبّ في مسار الترويج لفكرةِ "أنّ التحالف الروسيّ الأميركيّ بوجه النظام

الدكتاتوريّ الدمويّ في العراق يصبّ في صالح روسيا اقتصاديًّا وسياسيًّا". وبدأت غالبية الصحف في روسيا، والتي تموّلها المراكز المالية بحملة منظّمة تدعو إلى ضرورة " تعديل " مسارات السياسة الخارجية الأميركية. وطالب كتاب الأعمدة الكرملين بأضعف الإيمان؛ إذا كنت لا تريد الانضمام إلى الحملة العسكرية على العراق فيجب الامتناع عن الشجب.

ونشرت صحيفة " نيزافيسميا غازيتا " التي كان يموّلها رجل الأعمال بوريس بيريزوفيسكي، وهو يلوذ حاليًا بلندن هربًا من تهم الاختلاس والنصب والاحتيال في روسيا، سلسلة مقالاتٍ لديمتري سايمس الخبير في معهد نيكسون، والمهاجر من روسيا مطلع سبعينيات القرن الماضي، صبّت في محصّلتها باتّجاه أنّ الولايات المتّحدة ستأخذ في الحسبان "المصالح الروسية في العراق بعد إطاحة صدّام حسين". وكتب سايمس في عدد "نيزافيسميا غازيتا" ليوم ١٧,٠١. ٢٠٠٣ " سينتصر الحلفاء في العراق وسيرفع الحظر عنه. و تتيح له موارده الهائلة إمكانية أنْ يصبح بلدًا مفصليًا في منطقة الخليج الفارسيّ وعاملًا أساسيًا في الدفع باتّجاه التسوية السياسية للنّزاع الفلسطينيّ – الإسرائيليّ". وقال سايمس إنّ العراق " يحكم بنظام راديكاليّ يعيق التوصّل إلى تسوية في الشرق الأوسط بما يؤثّر تأثيرًا مباشرًا على المصالح الأميركية في الشرق الأوسط " وأضاف " في حال سقط صدّام حسين فإنّ حماس والمنظّمات الإرهابية الفلسطينية سوف لن تجد من يموّلها". وكانت روسيا تعيش تلك الفترة انحسارًا في نشاط القوى المؤيّدة للقضية الفلسطينية. وانحصر أصدقاء العرب في أوساط ضيّقة من دبلوماسيّين متقاعدين وخبراء عملوا خلال الحقبة السوفياتية في البلدان العربية لا يسمع لهم صوتٌ في دوائر صنع القرار. فيما استثمرت الدعاية المضادّة للعرب؛ نشاط حركاتٍ قوميةٍ متطرّفةٍ معادية لليهود في روسيا مثل حركة " باميت – الذاكرة " وغيرها للتدليل على أنّ "حلفاء " صدّام حسين ليسوا أكثر من حركاتٍ فاشيةٍ تنادي بذبح اليهود. وشدّد سايمس ومن لفّ لفّه على أنّ مصالح روسيا النفطية في العراق " لن تتعرّض إلى الضرر" إذا لم تعارض موسكو الاستعدادات الأميركية للحرب على بغداد. ووجدت مقالات سايمس صدًى لدى معظم الخبراء المقرّبين من الكرملين واتّخِذت بمثابة التوصيات. وبادر فريقٌ من الباحثين والخبراء بدعمٍ وتمويلٍ من السفارة الأميركية في موسكو إلى عقد طاولةٍ مستديرةٍ استغرقت أعمالها يومًا كاملًا في ٢٩ يناير/ كانون الثاني تحت عنوان (روسيا والعالم عشية الحرب في الشرق الأوسط)، وصدرت الصحف في اليوم التالي بعناوينَ عريضةٍ من قبيل

مسودة

(الخبراء يؤكّدون أنّ النظام القائم في العراق بحكم المنتهي) أو (الخبراء يرون أنّ روسيا أقوى بالتحالف مع أميركا ضدّ صدّام حسين). أو (الخبراء: يمكن لبوتين أنْ يساهم مع الولايات المتّحدة بعد إسقاط صدّام في بناء النظام العالميّ الجديد) وهكذا..

وأخذ هؤلاء الخبراء يحصون فوائد روسيا الجمّة من الحرب على العراق في مقدّمتها ارتفاع أسعار النفط. ولاحظ المحلّل السياسي يوسف دكسن أنّ بوش الذي دخل الحملة الانتخابية لن يسمح بأنّ يهبط سعر برميل النفط إلى أقل من ٢٢ دولار. فيما كتب المحلّل السياسي المقرّب من الكرملين فيتيشسلاف نيكينوف – يشغل الآن مقعد نائبٍ عن الحزب الحاكم (روسيا الموحّدة) في مجلس الدوما– " يجب منذ الآن تقاسم الحصص في العراق خلف الأبواب المغلقة وعلى روسيا أنْ تكون منتصرةً في الوقت المناسب ولا تتمسّك بصدّام حسين". وأصبح نيكينوف وهو حفيد وزير خارجية الاتّحاد السوفييتي سنوات الحقبة الستالينية مولوتوف لأنّه من أشدّ الدعاة للتحالف مع واشنطن ضدّ نظام صدّام حسين. وحذّر من القيام (بأيّ نشاطٍ دبلوماسيٍّ يعيق الولايات المتّحدة عن القيام بمهمّتها في العراق).

مسودة

التفاهم المحتمل وفيما كانت طبول الحرب حول العراق تُقرع شدّد بوتين في تصريحاته النادرة بشأن الملفّ العراقيّ على أنّه يمكن لروسيا أنْ تتعامل بتفهّمٍ مع الموقف الأميركيّ إذا قدّمت واشنطن ما يكفي من الأدلة على امتلاك العراق أسلحة الدمار الشامل. وقال في لقاءٍ مع طلبة جامعة كييف يوم ٢٨ يناير/ كانون الثاني ٢٠٠٣ " إذا أقنعنا الأميركان بحججهم فإنّنا يمكن أنْ نتّفق معهم على إجراءاتٍ صارمةٍ ضدّ العراق " ولم تظهر هذه العبارة على موقع الكرملين الإلكتروني التي تنشر نصّ أحاديث وخطب وتصريحات الرئيس بوتين عادةً. لكنّ بعض وسائل الإعلام علّقت عليها وصورتها على أنها تحوّل نوعيٌّ في موقف الإدارة الروسية، يتساوق مع " توصيات" الخبراء.

ورحّب هؤلاء الخبراء ببراغماتية بوتين التي تقف وسطًا بين ما اعتقدوه " رومانسيةً غربيةً" في إشارةٍ إلى التيّار الليبراليّ الروسيّ وبين " الوطنية المؤدلجة " كنايةً بالقوى المنادية بالوقوف ضدّ

الهيمنة الأميركية وتشمل التيّار القوميّ – الأرثوذكسي والأحزاب الشيوعية واليسارية المتشرذمة في روسيا.

أنبوبة الجنرال كولن باول

على الرغم من هزالة العرض الهوليوديّ لوزير الخارجية الأميركية السابق الجنرال كولن باول أمام مجلس الأمن يوم الخامس من فبراير / شباط ملوّحًا بأنبوبٍ صغيرٍ قال إنّه يكفي لتدمير المنطقة من "أسلحة صدّام الكيمياوية" المزعومة. إلا أنّ معظم وسائل الإعلام الروسية اتّخذته " دليلًا قاطعًا " وأطنبت في الحديث عن " التقارب " الروسيّ الأميركيّ. وظهرت سلسلة مقالاتٍ تحت عنوان " رائحة النقود" تتحدّث عن " أرباح " روسيا المتوقّعة بعد عراق ما بعد صدّام حسين.

لم يغيّر كلّ هذا الضخّ الإعلامي حذّر الرئيس بوتين، من الانزلاق في تحالفٍ معلنٍ مع الولايات المتّحدة بشأن العراق. وأطلق تصريحاتٍ أثناء جولةٍ أوربيةٍ بدأها بفرنسا في تلك الفترة يُفهم منها أنّ موسكو لا تؤيّد العمل العسكريّ ضدّ العراق لكنّها لن تقف حائلًا دونه.

لقد حفل مطلع العام ٢٠٠٣ بإشارات واضحة عن " التقارب الروسيّ الأميركيّ" واختفت من تصريحات المسؤولين الروس الإشارة إلى استخدام الفيتو في مجلس الأمن الدوليّ بشأن العراق ومعروفٌ أنّ واشنطن التفّت على الأمم المتّحدة وغزت العراق بتحالفٍ دوليّ وصمت "الأسرة الدولية".

وبحلول العام ٢٠٠٨، استعادت روسيا عقودها النفطية المجزية في العراق وأثبتت "براغماتيةً" بوتين حضورها في صنع القرارات ووفق مبدإ "لا تنازلات من دون ثمن" وسنأتي لاحقًا على تفاصيل تفاهم موسكو مع حكومة الاحتلال في بغداد للعودة إلى العراق بأقلّ الخسائر.

مسودة